الزمن الجميل

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد..

فالجمال ينشده الكبير والصغير، والرجل والمرأة، وقد تتفاوت الأنظار فيه، والعجب في انقلاب الموازين وانفلات المعايير بحيث يصبح القبيح الدميم جميلًا أو العكس؛ مما يدل على طمس العقول والفطرة.

ونفس الأمر بالنسبة للسعادة فهي مطلب المسلم والكافر، والبر والفاجر، ولكن يسلك البعض لتحقيقها مسالك التعاسة والشقاء.

والنفوس مجبولة على محبة الشخص الجميل، والمكان الجميل، وأيضًا الزمن الجميل، وقد يكون لكل إنسان معياره ومقياسه الخاص به، فالزمن الجميل من البعض هو زمن الصبا، حيث الصفاء والبساطة، فلا مشاكل ولا تحمل للمسئولية، فمجرد تذكر مرحلة الطفولة البريئة يبعث على الارتياح، وعلى الاستغراق في الزمن الجميل الذي ولَّى وضَاع.

وأحيانًا يحكي البعض عن الأفلام والأغاني القديمة، ويحكي عن الفن والتمثيل والسينما التي تدهورت ويَحِنُّ لعودتها لسابق مجدها وعهدها، حيث زمن الفن الجميل.

وقطاعٌ عريض عنده ميول رياضية والرياضة المحببة هي كرة القدم، وكثيرًا ما تجري المقارنات بين مباريات الماضي والحاضر، وإتقان اللاعبين الذين انحدر، ومستوى الكرة الذي صار في الحضيض، مما يُشعرك بالحنين الجارف تجاه الماضي، فلا وجه شبه بين الحاضر البائس وزمن اللعب الجميل.

فإذا انتقلت إلى عالم السياسة وجدت الأحاديث والحوارات لا تنتهي عن انتهاك الحريات والديكتاتورية، وأساليب القمع والبطش، والمخرج من ذلك، والعلاج لهذه

الأوضاع المتردية يكمن في تطبيق الديمقراطية وإلغاء قانون الطوارئ والسماح بإقامة الأحزاب، ولابد من التذكير بالزمن الجميل الذي رفرفت فيه الحريات.

وهكذا أصبحت كلمة الزمن الجميل وَصْفة سحرية، ولبانة ترددها الألسنة بوعي وبغير وعي، وصارت أشبه شيء بحلم يحلو للإنسان أن يعيش في أجوائه.

وكنت قد قرأت مقال لإحدى الصحفيات تنعي الزمن الجميل، حيث كانت تعيش المرأة تشرب فيه الخمر، وتلعب القمار، وتصاحب الرجال إلى أن ظهر المتطرفون المتشددون الذين حرَّموا عليها الماء والهواء -على حد تعبيرها-.

ونحن بدورنا نحب الزمن الجميل، ولكنه يفترق عندنا عن غيرنا، فكل إناءٍ بما فيه ينضح، والمسلم له شأن وللناس شأن، والطيور على أشكالها تقع.

وليس شيء مما ذكرنا من نماذج وصور يقترب من الزمن الجميل الذي نعتز به، وحتى نميز بين الجميل والقبيح، ويصطلح كل فريق على حقه فلابد من التحاكم للميزان الذي لا يخطئ، وهو ميزان الكتاب والسُنَّة، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

فإذا تنازعت الأهواء والآراء حول الزمن الجميل، فلابد من رد حكم ما تنازعنا فيه لكتاب الله ولسُنَّة رسول الله ﷺ، فهذا الضابط هو الذي توزن به الأقوال والأفعال والمشاعر والأحاسيس، وهو الذي يميز به بين الجميل والقبيح والمقبول والمرفوض، وهذا مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر.

فلا يجوز لأحد أن يتقدم بين يدي الله ورسوله بقول أو فعل، كما لا يصح لأحد أن يُحسِّن ما قبحته الشريعة، ولا أن يُقبح ما حسنته الشريعة.

من أجمل الأزمنة الزمن الذي ولد فيه الإنسان من جديد، فأسلم بعد كُفر، وتاب وأناب بعد معصية وإعراض، الزمن الذي أحس فيه بقلبه ورُدت عليه روحه، فقد كان أشبه بالجسد بلا روح ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ما أسعد اللحظات التي يصل فيها العبد بين الدنيا والآخرة، والأرض والسماء يعفّر جبهته بالتراب، ويصلي فيها لخالق الأرض والسماء ويناجي فيها ربه ويتذلل بين يديه ويتضرع لجنابه -سبحانه-: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

كان إبراهيم بن أدهم يقول: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم لجالدونا عليه بالسيوف»، أي من اللذة والنشوة بسبب ذكر الله، وكان ابن تيمية يقول: «المحبوس من حُبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه»، وكان بعض الصالحين يقول: «إنه لتمر عليّ لحظات وكأن القلب يرقص فيها طربًا وشوقًا إلى الله، وما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله تعالى».

الزمن الجميل عندنا هو الذي تعرفنا فيه على واجب العبودية، وتابَعْنا منهج الأنبياء والمرسلين، وعلمنا أن المرجع والمآب إلى الله، وأن النفس إلى موت والمال إلى فوات، وأبصرنا في ضوء ذلك الإجابة على الأسئلة الحائرة: من خلقنا؟ ولماذا خلقنا؟ وإلى أين المصير؟ فقام الموفقون يعمرون اللحظات بطاعة الله ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، وكان لسان حالهم ينطق:

إن لله عبادًا فطنا	طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا	أنها ليست لحي وطنا
جعلوها لُجّة واتخذوا	صالح الأعمال فيها سفنا

الزمن الجميل هو الذي علم العبدُ فيه أن الأنفاسَ رأسُ ماله؛ فهَجَرَ حياة الرقص والغناء واللعب، وترك الأفلام والمسلسلات والمسرحيات، وعلم أن الموازنات لا تصح بين ضياع وضياع، ولا بين فساد وفساد، فالأفلام والأغاني القديمة والجديدة شر وبلاء.

سعدت النفوس يوم عمَّرت المساجد، وارتادت حِلَقَ العلم وتلاوة القرآن، واهتمت بأمر المسلمين في العراق وأفغانستان وفلسطين والشيشان، وإن في العبادة لشُغلًا.

الزمن الجميل الذي تركنا فيه العيش بمنطق أهل الجاهلية، فقد كانوا يقولون: اليوم خمر وغدًا أمر.

وقد صرنا اليوم نقول: ساعة لربك وساعة لنفسك، والساعة التي هي لله نصلي ونصوم فيها، والساعة التي هي للنفس نرقص ونغني، ونحيا مع كل شيطان مريد، حياة كلها تناقض أشبه بحياة أهل الجاهلية، وكيف تسعد النفوس بمعصية الله؟!

والله تعالى يقول: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٤]

هذه النفس ربنا هو خالقها وهو العليم بما يسعدها ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، لا مانع من الترويح عن النفس بشيء مباح، كما قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «روِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة؛ فإنها إن كلت عميت».

قال عمر رضي الله عنه: «علموا أولادكم السباحة والرماية ومروهم فليثبوا على ظهور الخيل وثبًا»، وكان عليّ رضي الله عنه عدَّاءً، وكان سلمة بن الأكوع يسابق الخيل فيسبقها، وصارع النبي ﷺ ركانة فصرعه ثلاث مرات، وكان ركانة من مشاهير العرب بالقوة، «وكان النبي ﷺ **يمزح ولا يقول إلا حقًا، وكانت الحبشة تلعب بالحراب في المسجد، ويقول لهم النبي ﷺ: دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ**» [رواه البخاري].

وأين كرة القدم -التي نقارن بها بين زمان وزمان- من هذه الألعاب المذكورة. لا نغالي لو قلنا: إن كرة القدم من أسوأ الألعاب والرياضات.

وكذلك لا مانع عندنا من أخذ الزراعة والصناعة والهندسة والطب والعلوم النافعة من كل من أفلح، ولا حرج في المفاضلة بين عصور التقدم والقوة وعصور التخلف والضعف، ولم يكن التخلف بسبب غياب الديمقراطية، ولا الضعف بسبب قلة العدد والعتاد وضحالة التكنولوجيا العصرية، وما تخلفت الأمة ولا ضعفت إلا يوم تباعدت عن دينها، وهجرت العمل بكتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ، فالشريعة دعت المسلمين للأخذ بأسباب القوة في كل نواحي الحياة، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]، ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وفي الحديث: «**إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ**» رواه أحمد، وصححه الألباني.

وعصور الرجعية والتخلف والظلام تُطلق على العصور الوسطى عند الغرب لا عند المسلمين؛ فالزمن الذي بُعث فيه رسول الله ﷺ هو أجمل الأزمنة على الإطلاق، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]

لقد زيّف الغرب حقائق التاريخ والجغرافيا، وانطلى ذلك على العميان، صيّرونا شرقًا وواقع الحال أننا في وسط الدنيا ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وأشادوا بالعصر الحديث بينما أطلقوا وصف القرون الوسطى والمظلمة على الحقبة التي بُعث فيها رسول الله ﷺ!!

إن الغرب اليوم يعاني إفلاسًا روحيًا، ولم تورثهم معاني التطور والتقدم المادي إيمانًا ويقينًا ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]، أنشأت الثورة الصناعية حضارة القلق؛ فكثرت المصحات النفسية، وامتلأت المستشفيات العقلية بالنزلاء، وزادت الجرائم ونسب الانتحار، وها هم يعانون من مقدمات الانهيار الاقتصادي، فهل يصح بعد ذلك وصف العصر الحديث بالزمن الجميل؟!

لقد انتقل الغرب من تسلط الكنيسة بخزعبلاتها على العلم التجريبي وعلماء المادة، ومن محاكم التفتيش في القرون الوسطى إلى العصر الحديث بنكده وتعاسته، وهذا كله من جرَّاء البعد عن منهج الله، والبعض يحلو له أن يقارن رداءه بردائه وتعاسته بتعاسته ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

الزمن الجميل هو الزمن الذي وُلِدَ فيه الهدى فالكائنات ضياء، بُعث سيدُ ولد آدم على حين فترة من الرسل بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، ففتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلفًا، وبصَّر به من العمى، وهدى به من الضلالة، بُعث بعد أن أظلمت الأرض، وانمحى أو كاد نورُ الإيمان من الوجود، وكانت بعثته ﷺ في خير وأجمل بقاع الأرض مكة المكرمة، ولخير أُمَّة أُخرجت للناس، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وخير وأجمل الناس قرنه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.

تطيب الحياة إذا عمل فيها بطاعة الله تعالى، حتى وإن تقلب الإنسان بين عسر ويسر، ومنشط ومكره، ولا أصرح في الدلالة على ذلك من حياة الأنبياء والمرسلين ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعلى العكس والنقيض فحياة اللاعبين واللاهين أشبه بسراب يحسبه الظمآن ماء، أو قل هي لذة ساعة وألم دهر.

ولما كانت الحياة ممتدة زمانًا ومكانًا أمامنا، ولا تقتصر على مجرد هذه اللحظات الفانيات، بل تمتد لأبد الآبدين، ومكانًا لجنة فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كان على العاقل اللبيب أن ينشد الانتقال من زمن جميل إلى زمن

أجمل، ولذلك تراه يحرص على حياة الإيمان ويصنع كما فعل نبي الله يوسف بعد أن تولى زمام المالية بمصر، قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

والقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران، ولا ندري كم من الزمن سنمكث في قبورنا؟ وشتان بين من يُقال له: «**فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ. قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا**»، وبين من يقال له: «**فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ. قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا**» [رواه أبو داود وأحمد، وصححه الألباني].

فارق كبير بين من يتناول كتابه بيمينه، ويمر من على الصراط بسرعة البرق أو الريح أو الفرس، وبين من يتناول كتابه بيساره، وتخطفه كلاليب جهنم فتهوى به في قعرها، هذا يقال له: سعدت سعادة لا شقاء بعدها أبدًا، والثاني يقال له: شقيت شقاءً لا سعادة بعده أبدًا ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥]

فالدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، وهي دار من لا دار له، كان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «يا دار تخربين ويموت سكانك، أشبه بعجوز شمطاء تزينت بكل زينة وسترت على قبح ودمامة»، أين قوم نوح وعاد وثمود؟ (وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا)، أين فرعون وهامان وقارون؟

فيا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به، واعلموا أن الدنيا لو كانت من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى، لكان على العاقل اللبيب أن يؤثر الخزف الباقي على الذهب الفاني، فكيف والآخرة من ذهب يبقى، والدنيا من خزف يفنى ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ الْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا أخرانا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر.

وآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

ادعاء الرفق بالحيوان
وأين الرفق بالإنسان؟!

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد..

فقد أثار قرار مصر بقتل كل قطعان الخنازير الموجودة على أراضيها جمعيات الرفق وحقوق الحيوان، ووصفت الممثلة الفرنسية «بريجيت باردو» المعتزلة هذا القرار بأنه عمل جبان إلى أقصى الحدود، واعتبرت قتل كل هذه الحيوانات للقيام لاحقًا بتربية مكثفة أمر غير مقبول.

وكان قد سبق أن ناشدت منذ سنوات وضع حد للأساليب الوحشية -على حد تعبيرها-، والمعاناة الكبيرة للكلاب الضالة التي تسمم أو تُقتل بالرصاص، وأكدت أن الحيوانات التي كانت بالأمس تُحترم وتُرفع إلى مصاف الآلهة تعامل اليوم بأسوأ طريقة من قِبل المصريين بعدم اكتراث.

وترى أن هناك دولًا أقل ثراء من مصر عرفت كيف تتغلب إنسانيًا على مشكلة الكلاب الضالة من خلال التعقيم، مؤكدة أن مؤسستها تشارك في برامج من هذا النوع، ويمكن أن تقدم لنا خبرتها في هذا المجال.

وتتبنى هذه الممثلة قضية الدفاع عن الحيوانات منذ أكثر من ربع قرن، ولها مؤسسة تخصصت في ملاحقة المسيئين لها حيثما كانوا في العالم، وهذه الجمعيات موجودة في أوروبا وفي بلدان كثيرة من العالم ويحرصون على نشر الوعي لرعاية الحيوان والرفق به، بل وحبه، كما وضعوا القوانين التي تعاقب من يقسو عليه أو يسيء معاملته.

وأول جمعية أنشئت في أوروبا للرفق بالحيوان في انجلترا ١٨٢١م، ولا يخلو هذا الرفق من نوع من الخلط والادعاء، ويقودنا في الوقت ذاته إلى السؤال عن حق الإنسان المسلم، بل ونضيف أين الرفق بالإنسان الكافر.

وهذا يتطلب منا عدة وقفات:

أولًا- ادعاء الرفق بالحيوان عند الغرب لا يستحق منا أن نعتبره مقياسًا وميزانًا، أو أن ننظر إليه بانبهار؛ فلا يخلو عمل الكافر في هذا وغيره من نقص وتقصير.

ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم):

والثاني- أن نفس ما هم عليه من الهدى والخلق قد يكون مضرًا أو منقصًا، فينهى عنه ويؤمر بضده لما فيه من المنفعة والكمال، وليس شيء من أمورهم إلا الزيادة والنقص، فمخالفتهم فيه: بأن يشرع ما يجعله على وجه الكمال، ولا يتصور أن يكون شيء من أمورهم كاملًا قط، فإذًا المخالفة لهم فيها منفعة وصلاح لنا في كل أمورنا، حتى ما هم عليه من إتقان أمور دنياهم، قد يكون مضرًا بآخرتنا، أو بما هو أهم منه من أمر دنيانا، فالمخالفة فيه صلاح لنا».

إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحقيقة الأمر أن جميع أعمال الكافر وأموره، لابد فيها من خلل يمنعها أن تتم له منفعة بها، ولو فرض صلاح شيء من أموره على التمام لاستحق بذلك ثواب الآخرة، ولكن كل أموره: إما فاسدة وإما ناقصة، فالحمد لله على نعمة الإسلام، التي هي أعظم النعم وأم كل خير كما يحب ربنا ويرضى». اهـ.

فلا صلاح حقيقي، ولا إصلاح إلا بالتمسك بدين الله، والرجوع لشرع الله، ولا تطور ولا تقدم يرضي الله -عَزَّ وَجَلَّ- إلا بأن نكون على مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، فهذا هو المنهج الذي يحقق لنا الحضارة بمفهومها الحقيقي، وليس بمعناها الزائف.

ثانيًا- لا معارضة بين الرفق بالحيوان والرفق بالإنسان، فلابد من سعة الأفق وشمولية النظرة، بل عند المعارضة فلابد من تقديم وتأخير وفق شرع الله، ولذلك نقدم الرفق بالإنسان.

وهذا الرفق الذي نحرص عليه لا ينبغي أن يقتصر على الصور المادية، بمعنى أن نهتم بالبدن في الوقت الذي ندمر فيه الروح كما هو صنيع العالم الغربي ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[الروم: ٧].

فانتشار المعاصي والذنوب والشركيات والفلسفات الهدامة قد أورث الغرب ما يسمى بحضارة القلق، وهي حضارة آيلة للسقوط والانهيار شأنها في ذلك شأن قوم نوح وعاد وثمود.

إن الرفق بالإنسان الغربي يقتضي تعبيدَه بدين الله، ودعوتَه للاستقامة على كتاب الله وعلى سُنَّة رسول الله ﷺ؛ حتى يسعد في الدنيا والآخرة ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[طه: ١٢٣- ١٢٤]

لقد وجد الناسُ في الغرب في الكلاب والقطط عوضًا عن الأبناء العاقِّين، فالأجدر أن تقام الجمعيات في الغرب لأسلمة الحياة هناك، رفقًا بالبلاد والعباد، لا أن يقتصر الأمر على جمعيات الرفق بالحيوان، وإذا كان هذا هو حالهم على أنفسهم وبني جنسهم، فكيف نطلب منهم الرفق بالمسلمين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال تبارك وتعالى:﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٦]، وقال عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[البقرة: ١٢٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾[آل عمران: ١١٨].

لقد بعثت أمريكا بقطع من الأسطول السادس لنجدة كلب في عرض المحيط، ولم يتورعوا عن قتل ملايين المسلمين في العراق وأفغانستان وفلسطين!!

قتلوا مليون طفل عراقي أثناء الحصار وبدماء باردة، ثم يتحدثون بعد ذلك عن حقوق الإنسان والرأفة بالحيوان!!

ثالثًا-الرفق بالحيوان يستدعي التفريق بين المؤذية وغيرها، فالضرر يُزال، والمحافظة على النفس من مقاصد الشريعة، وقد أباحت النصوص قتل المؤذي منها كالكلب العقور، والذئب، والحية، والعقرب، والفأر، وما إلى هذا؛ لقول النبي ﷺ: «**خَمْسٌ فَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ فِى الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْحَيَّةُ وَالْغُرَابُ الأَبْقَعُ وَالْفَارَةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ وَالْحُدَيَّا**» [رواه مسلم].

أما بالنسبة للخنازير فقد كانت من أعظم أسباب انتشار أنفلونزا الطيور، واليوم يتخوف من تحور الفيروس، وأن تكون السبب في انتشار وباء أنفلونزا الخنازير، فالشفقة على الخنازير من قبل جمعيات الرفق بالحيوان لا تنسينا الشفقة ببني الإنسان.

رابعًا-الإسلام أسبق في الدعوة للرفق بالحيوان، ولا يمكن أن يتحقق الأمر على وجهه إلا بالرجوع للكتاب والسُنَّة، فالناس في هذا وغيره بين إفراط وتفريط وإسراف وتقصير.

المسلم يعتبر أغلب الحيوانات خلقًا محترمًا، فيرحمها برحمة الله -تعالى- لها، ويلتزم نحوها بالآداب التالية:

١- إطعامها وسقيها إذا جاعت وعطشت؛ لقول الرسول ﷺ: «**فِى كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**» رواه البخاري، وقوله ﷺ: «**مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ**» رواه البخاري ومسلم، وقوله ﷺ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِى الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ**» [رواه الترمذي، وحسنه الألباني].

٢- رحمتها والإشفاق عليها لقول عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- لما رأى فتيةً قد اتخذوا حيوانًا -طيرًا- غرضًا (هدفًا) يرمونه بسهامهم: «**إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا**» رواه مسلم، ولنهيه ﷺ عن صَبْر البهائم أي حبسها للقتل، رواه مسلم، ولقوله ﷺ: «**مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا**»، قال لما رأى الحُمَّرة -طائر- تحوم تطلب أفراخها التي أخذها الصحابة من عشها. [رواه أبو داود، وصححه الألباني].

٣- إراحتها عند ذبحها أو قتلها لقوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**» [رواه مسلم].

٤- عدم تعذيبها بأي نوع من أنواع العذاب سواء كان بتجويعها، أو ضربها أو بتحميلها ما لا تطيق، أو بالمثلة بها، أو حرقها بالنار، وذلك لقول الرسول ﷺ: «**عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ لاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا وَلاَ هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ**» [متفق عليه].

وقد مرَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقرية نمل -موضع نمل- وقد أُحرقت فقال: «**إِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلاَّ رَبُّ النَّارِ**» -يعني الله عَزَّ وَجَلَّ-[رواه أبو داود، وصححه الألباني].

٥- إباحة قتل المؤذي منها كالكلب العقور، والذئب، والحية، والعقرب، والفأر، وما إلى هذا لقول الرسول ﷺ: «**خَمْسٌ فَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ الْحَيَّةُ وَالْغُرَابُ الأَبْقَعُ وَالْفَارَةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ وَالْحُدَيَّا**» [رواه مسلم]، كما صح عنه كذلك قتل العقرب ولعنها.

٦- جواز وسم النَّعَم في آذانها للمصلحة، إذ رؤي ﷺ «**يَسِمُ بيده الشريفة إِبِلَ الصَّدَقَةِ**» [رواه البخاري].

أما غير النعم (وهي الإبل والغنم والبقر) من سائر الحيوان فلا يجوز وسمه لقوله ﷺ وقد رأى حمارًا موسومًا في وجهه: (**لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَهُ**) [رواه مسلم].

٧- معرفة حق الله فيها بأداء زكاتها إذا كانت مما يزكي.

٨- عدم التشاغل بها عن طاعة الله أو اللهو بها عن ذكره لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، ولقول رسول الله ﷺ في الخيل: «**الْخَيْلُ لِثَلاَثَةٍ؛ لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَأَطَالَ فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا**

ذَلِكَ مِنَ الْمَرْجِ أَوِ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ كَانَتْ أَرْوَاثُهَا وَآثَارُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَهَا كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِئَاءً وَنِوَاءً لأَهْلِ الإِسْلاَمِ فَهْىَ وِزْرٌ عَلَى ذَلِكَ» [رواه البخاري ومسلم].

فهذه جملة من الآداب يراعيها المسلم إزاء الحيوان طاعة لله ولرسوله ﷺ، وعملًا بما تأمر به شريعة الإسلام، شريعة الرحمة، شريعة الخير العام لكل مخلوق من إنسان أو حيوان.

خامسًا- وردت النصوص تتحدث عن عالم الحيوان، وتبين عظيم قدرة الله في خلقه، وما في هذه النصوص من دلائل وإعجاز قد سيق مساق الهداية، قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥-٨]. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧].

وقد ذكر النبي ﷺ لأمته قيمة الرحمة بالحيوان، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِى بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ فَقَالَ الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِى كَانَ بَلَغَ مِنِّى. فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِىَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ. قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنَّ لَنَا فِى هَذِهِ الْبَهَائِمِ لأَجْرًا؟ فَقَالَ: فِى كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**» [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «**دَخَلَتِ امْرَأَةُ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خِشَاشِ الأَرْضِ**» [رواه البخاري] ومسلم، فكيف بمن فعل مثل ذلك بالإنسان؟

وعلى هذا النهج في الرفق بالحيوان سار الأفاضل، وقد رؤي عمر رضي الله عنه يضرب رجلًا ويلاحقه بالزجر لأنه يحمّل جمله ما لا يطيق، وكان يقول: «لو ماتت شاة بوادي الفرات لسُئِل عنها عمر لِمَ لمْ يمهد لها الطريق يوم القيامة»، وقال ربيعة: «لا تذبح ذبيحة وأخرى تنظر إليها»، وقيل: عندما رحل عمرو بن العاص بجيش المسلمين الذي كان معسكرًا بالقرب من حصن بابليون إلى الإسكندرية لفتحها أمر بالإبقاء على فسطاطه (خيمته) منصوبًا لأن تقويضه كان سيضر ببيام عشش في سقفه مع صغاره.

سادسًا-قد يلجأ الغرب إلى صعق الحيوان صعقًا كهربائيًا، وقد تعتبر جمعيات الرفق بالحيوان أن الخنق هو الطريقة المثلى للتزكية!!

وهذا وغيره مما يخالف الشريعة المطهرة لا نلتفت له ولا نعول عليه، فقد كفانا -سبحانه- وأغنانا فقال: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال ﷺ يوم حجة الوداع: «**وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابَ اللهِ**» رواه مسلم.

لا يملك الغرب إلا مجرد الزعم والدعوى عندما يتكلمون عن حقوق الإنسان والرفق بالحيوان، مما يجعلنا نقول لهم: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فالعُملة الزائفة لا تروج على الله، وبضاعة الغرب المزجاة لا تروج إلا على أعشى البصيرة.

وآخِرُ دَعْوَانا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِين

خرق الاجماع بزعم الاجتهاد والتنوير والتطوير
(رد على الدكتور/ القرضاوي، والأستاذ/ جمال البنا)

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد..

فمع اشتداد موجات التحرر والمطالبة بحرية الرأي والفكر والتعبير ظهرت مصطلحات، مثل تطوير الخطاب الديني، وتحديث الفتاوى بما يلائم عصر التطور!!، ونطق لسان حال البعض أنه يملك الدين ليتصرف فيه وفق هواه، ويرقع به عوج الحياة.

وبالضبط كما فعلوا مع اللغة العربية تحت لافتة الكلمة الشهيرة التي قالها طه حسين يومًا: نحن نملك اللغة كما كان القدماء يملكونها، ولنا أن نضيف إليها ما تحتاج إليه من ألفاظ ومعان.

لقد صار الحبل على الغارب والتقلب على أشده، فلا ضابط ولا رابط، فالآيات يؤولونها إذا عارضت الأهواء، والسُنة يردونها حتى وإن كانت في الصحيحين ويزعم مخالفة العقل، لم يلتفتوا لإجماع ولا لغيره من أدوات الاستنباط.

ومن الحقائق الثابتة أن الغرب في مواجهته للإسلام الذي أسماه بمواجهة التطرف والإرهاب لم يعدم وجود البعض ممن يتكلم بلساننا وممن هو من جلدتنا؛ ليروج له بضاعته بزعم الاجتهاد والتنوير والتطوير والتحديث، ومن خالف ذلك استحق نعتًا من نعوت التنفير فهو متطرف، جامد، ظلامي، وفي أحسن أحواله: أصولي، ومن قبل كانوا يطلقون على هذه الفئة رجعية، ومتخلفين، ومتزمتين، وأصحاب هوس ديني.

ولم تعد الهجمة قاصرة على الملاحدة والعلمانيين، والمطالبين بالعيش في أجواء الانفتاح والتحرر الديمقراطي، وإن شئت قلت: ينشدون دنيا بلا دين، وبعدما كانت الدنيا أشبه بقرية صغيرة ثم حجرة صغيرة، أصبحت الآن أشبه بجهاز صغير، وتم تركيز

الأضواء على شخصيات بعينها، وخصوصًا فيما يبدر منها من زلات وسقطات تؤدي للتفلت والتحلل من كل خُلق ودين.

فجماعات المثقفين والعلمانين والملحدين متربصة بالدين وأهله، فإذا رأوا سقطة توافق آراءهم فصاحبها مستنير ومعتدل، وإذا رأوا عكس ذلك فصاحب الفتوى منغلق ومتشدد لا يتواكب مع العصر، وربما ضربوا الطبل وسارت الركبان بمسائل مثل رُضاع الكبير، وبول النبي ﷺ، همزًا وغمزًا ولمزًا.

لقد خلعت ألقاب وجوائز عالمية من جهات مشبوهة وتصدر بعض هذه الشخصيات قوائم الشهرة على مستوى الدنيا، وقديمًا قالوا: ما خان أمين قط، ولكن أؤتمن غير أمين فخان.

وقد وردت الأخبار الكثيرة توضح ضياع الأمانة، ومن علامات الساعة أن يؤتمن الخائن ويُخَوَّن الأمين وينطق الرويبضة وهي السفيه يتكلم في أمر العامة، وأن يلتمس العلم عند الأصاغر، وهم أهل البدع، كما قال ابن المبارك.

نحن لا نتهم أحدًا بعينه بالعمالة للشرق أو الغرب، أو أنه دأب على تحليل الحرام وتحريم الحلال. لا نقول بأن فلانًا ممن باع دينه بدنيا لا بقاء لها ولا وفاء أو بدنيا غيره، أو أنه يتعمد خرق الإجماع.

ومع إحسان الظن وتلمس العذر تبقى النصيحة، ووضع النقاط على الحروف؛ حتى يصطلح كل فريق على حقه وخصوصًا في وقت كثرت فيه المسائل المثيرة للجدل، والمنسوبة لبعض مشاهير العصر مثل القرضاوي وجمال البنا.

ولا يسعنا هنا تتبع المسائل والرد التفصيلي عليها، ولكن نركز على فتاوى وصور معينة توضح ما نهدف إليه، وما نريد الاتفاق عليه:

أولاً- مناسبة هذا الحديث:

ما جاء في جريدة الدستور الخميس ٢٧ من ربيع الآخر ١٤٣٠هـ في الصفحة الأولى تحت عنوان: «القرضاوي يعترف... كتمتُ بعض الفتاوى تجنبًا لهياج العامة وتشويش الجامدين، الشيخ أبو زهرة أخفى ٢٠ عامًا بعدم جواز رجم الزاني المحصن؛ لأنه كان شريعة يهودية ونُسخت في سورة النور، كاشفًا أنه كان له رأي في مصافحة الرجل للمرأة، ووصل إليه ولم ينشره إلا بعد سنوات خشية أن يشوش الناس عليه، مشيرًا إلى أنه يرى جواز مصافحة الرجل للمرأة بشرطين، هما: أن تكون هناك ضرورة، وحال أمنت الفتنة، وضرب مثلًا لفتواه بما يحدث له عند زيارة قريته صفط تراب، وتستقبله قريباته بنات العم، والخال، والجارات، وهن يمددن أيديهن، فيضطر لمصافحتهن، واعتبر أن الفتنة مأمونة في تلك المصافحة بحكم القرابة وكبر السن، وليس من اللائق رد يد القريبة أو الجارة الممدودة يدها بالسلام، موضحًا أنه لم يجرؤ على نشر الفتوى لسنوات... وجاء ذلك في معرض حديثه عن الشجاعة الأدبية والعلمية».

وقال: «إن هناك علماء متحررين يسيرون وراء الدليل وليس وراء فلان أو علان»

ثانيًا- يا ليته فعل وظلت الأهواء والآراء الساقطة حبيسة النفس، حتى ينتقل إلى ربه ولم ينشرها في كتابه فتاوى معاصرة، ويعتبرها شجاعة علمية وأدبية، وأن العلماء المتحررين يسيرون وراء الدليل، سامحه الله وغفر له على السيل المنهمر من المخالفات الشرعية.

فالنبي ﷺ لم يصافح النساء وما مست يده امرأة، وما بايع النساء إلا كلامًا، كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقال النبي ﷺ: «**لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له**» رواه البيهقي والطبراني، وصححه الألباني، فتواطأ القول مع الفعل على النهي عن مصافحة المرأة الأجنبية كالجارة وبنت العم وبنت الخالة.

ولكل ساقطة لاقطة، فالمرأة قد تُشتهى حتى وإن كانت كبيرة في السن، والرجل يتزوج ممن هي في عمر أحفاده، وملامسة الرجل تفترق عن ملامسة المرأة شرعًا وطبعًا.

وهل الضرورة التي ذكرها كضرورة أكل الميتة للمضطر؟ أم أن الغربة والجهالة علاجها في النصيحة وتوضيح المفاهيم لا في إقرار المنكر والتلبيس على العامة، والتكريس للمخالفات؟

وما هي حدود أمن الفتنة فيما فعل وضوابط الضرورة الشرعية؟

هذا مثال لا على سبيل الحصر، وإلا فالسيل المنهمر من المخالفات لا يكاد يتوقف.

ولا ينبغي الرد التفصيلي هنا على هذه المسألة أو غيرها، بقدر ما نضع أيدينا على مناهج البعض ممن اشتهروا في عالمنا المعاصر.

والشيخ القرضاوي إن لم يجد واحدًا من الأولين يدلل به على المخالفة التي يسميها شجاعة أدبية وعلمية، قد لا يعدم واحدًا من المتأخرين أو المعاصرين كأبي زهرة الذي أخفى ٢٠ عامًا بعدم جواز رجم الزاني المحصن، يقول: لأنه كان شريعة يهودية ونُسخت في سورة النور!!!

فالرد بكل بساطة: اتفق الفقهاء على وجود رجم المحصن الثيب، ورَجَمَ النبي ﷺ ماعزًا والغامدية، وقد ثبت الرجم بالسُنة المتواترة المجمع عليها، وأيضًا ثابت بنص القرآن. راجع في ذلك أي كتاب من كتب الفقه المعاصرة أو المطولة؛ لتدرك آخر صور التفلت والتحلل.

ثالثًا- بوابات هدم الدين كثيرة، منها الطعن في الصحابة الذين هم نقلة الشريعة، ومنها الطعن في السُنَّة، ومنها تجميد العقل ورد النصوص لتوهم مخالفتها لزبالات الأذهان، ومنها ما يسلكه القرضاوي وأمثال جمال البنا -بقصد أو بغير قصد، وبوعي أو بغير وعي- بأن يضع الإنسان من رأيه وهواه واستحسانه دينًا لنفسه ولغيره في عصر البريق والشهرة والأضواء الإعلامية فهذه طامة منهجية.

قد نحاور القرضاوي فيما ذكره مؤخرًا ونحاوره قبل ذلك في استحسانه تولية الكافر إمرة المسلمين مخالفًا بذلك إجماع العلماء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النِّسَاء: ١٤١]، والإسلام يعلُو ولا يُعلى.

ونحاور جمال البنا في إنكاره حد الردة وغير ذلك من القضايا التي لا تنتهي، فكل يوم نسمع جديدًا مما يخالف الكتاب والسُّنَّة وإجماع علماء الأمة، فتاوى ومسائل لم يقل بها الأولون والآخرون تُحدِث صخبًا وضجيجًا في وقت لا يحتمل إشغال الأمة وإضاعة جهودها.

وبطريقة: «رمتني بدائها وانسلت» سيتهمون المخالف بالجمود والتحجر والتخلف، وعدم الاهتمام بأمر المسلمين، والانشغال بسفاسف الأمور، وهكذا تضيع المعالم والحقائق في زحمة الغبار الذي يثيرونه.

رابعًا- من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ، وفي الحديث: «**اتَّقُوا الْحَدِيثَ عَنِّي إِلاَّ مَا عَلِمْتُمْ فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ وَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» [رواه الترمذي، وقال حسن صحيح].

وكان عمر رضي الله عنه يقول: «إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السُنن أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها وتفلتت منهم أن يعوها واستحيوا حين سُئلوا أن يقولوا لا نعلم، فعارضوا السُنن برأيهم فإياكم وإياهم».

لا يجوز العمل بزلات العلماء، فلكل جواد كبوة ولكل عالم زلة، وما كل خلاف جاء معتبرًا، وكل إنسان يؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله ﷺ.

كما لا يجوز أيضًا تتبع رخص المذاهب، فمن تتبع رخص المذاهب تجمع فيه الشر كله كما قال العلماء، وإذا اختلف العلماء على قولين في مسألة أو تفسير آية، فلا يجوز استحداث قول ثالث، لأن هذا بمثابة خرق للإجماع، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النِّسَاء: ١١٥]

وإجماع العلماء المعتبرين في عصر من العصور على حكم شرعي لا يجوز مخالفته ولا نقضه، فالأمة لا تجتمع على ضلالة.

إن أبواب الاجتهاد مفتوحة لمن تأهل وحصل على أدوات النظر في الكتاب والسُّنَّة، ولا اجتهاد مع النص.

خامسًا- خطأ القرضاوي وأمثال جمال البنا خطأ منهجي لا يقتصر على المسائل التفصيلية التي يتكلمون بها كل يوم، وما المسائل المثيرة للجدل عندهم إلا بمثابة أعراض المرض، هذا المرض هو الانحراف عن فهم سلف الأمة للكتاب والسُّنَّة، فكل خير في اتباع من سلف... وكل شر في ابتداع من خلف، وما لم يكن يومئذٍ دينًا فليس باليوم دينًا، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، كما قال إمام دار الهجرة الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ.

لقد أثنى الله تعالى على الصحابة الكرام فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقال النبي ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**» [رواه البخاري].

وقد أثنى ابن مسعود على إخوانه فقال: «كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا»، وقالوا: كل عبادة لم يتعبدها صحابة رسول الله ﷺ فلا تعبدوها.

إن التطوير والتحديث لا يتم بخرق الإجماع، ومصادمة النصوص، وابتداع أمور لم يأذن بها الله؛ فالعبادات توقيفية تؤخذ دون زيادة أو نقصان، أما المعاملات فالأصل فيها الإباحة إذا روعيت ضوابطها الكلية.

فلنتطور في صنع الطائرة والصاروخ، فالأخذ بأسباب القوة كائنة ما كانت حتى لو امتلكنا سلاحًا نوويًا، وهذا لا يعني أن نهجر إسلامنا، أو أن نقول بمصافحة المرأة الأجنبية وتولية المرأة الإمامة العظمى، وتولية الكافر إمرة المسلمين، وإلغاء حد الردة، وإبطال الحدود الشرعية ومنها رجم الزاني المحصن.

لا داعي للخلط بين المسائل، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وأخذ العلوم النافعة من كل من أفلح فيها لا بأس به، فتعلم الزراعة والصناعة والهندسة والطب تؤخذ من هنا أو هناك، أما علوم الهداية فلا تؤخذ إلا من الكتاب والسُنَّة.

إن القرضاوي وجمال البنا ليسا من أهل الاجتهاد والنظر، إنما من أهل الرأي والهوى، وعلى من أراد أن يتعلم دينه فليرجع لعلماء الأمة المعتبرين في فهم الكتاب والسُنَّة، ولا ينبهر بلافتات مثل رئيس اتحاد علماء المسلمين، فما أيسر أن يُطلق الإنسان مثلها على نفسه أو يطلقها عليه أحبابه وأتباعه، في وقت صارت الدكتوراة تؤخذ من جامعات تتساهل في منحها.

وقد لا يعنينا الأشخاص ويبقى الزود عن حمى الشريعة المطهرة، وقد قدم الإمام أحمد وعلي بن المديني مَن منهجه الكتاب والسُنَّة وإن أخطأ على من منهجه الكلام حتى وإن أصاب؛ فإن الثاني قد حاد عن طريقة من مضى بإحسان، وإن أصاب الحكم مرة أخطأه عشرات المرات، أما الأول فيصدق عليه قول النبي ﷺ: «**إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**» [رواه البخاري ومسلم].

سادسًا- ما قيمة أن تُرضي الناس بسخط الله؟ وما قيمة أن يرضى عنك الملاحدة والمثقفون والغرب وتخسر ربك ودينك ونفسك؟ قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وفي حديث الحوض «**وَإِنَّ أُنَاسًا مِنْ أَصْحَابِي يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ فَأَقُولُ أُصَيْحَابِي أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ. فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: (وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**» [متفق عليه].

امضِ على طريقة سلفك الصالح فإنهم عن علم وقفوا وببصر نافذ كفوا، واعلم أن طريقهم أسلم وأعلم وأحكم ممن جاء بعدهم، وهذا المنهج يكفيك في هذه المسائل وغيرها في جميع شئون الحياة سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو أخلاقية.

سابعًا- خرق هؤلاء للإجماع وهجرانهم لمنهج أهل السُنَّة والجماعة في الاستنباط والاستدلال يذكر بتخطئه البعض لتغطية الوجه والكفين وتجريم الختان، فهذه المسائل دائرة بين الوجوب والاستحباب، يذكرنا كلامهم وطريقتهم بالصوفية الذين اعتمدوا الكشوفات والمنامات والفتوحات، والمعتزلة الذين قدموا العقل على النقل مخالفين بذلك منهج أهل السُنَّة والجماعة في تقديم الوحي، فما وافق الكتاب والسُنَّة قُبِلَ، وما خالف ذلك مردود على صاحبه كائنًا من كان، وشيخ الإسلام حبيب إلى أنفسنا والحق أحب إلينا منه.

يذكرنا كلامهم بما حدث يومًا من خلاف حول كتاب تيسير الوحيين بالاقتصار على الكتاب مع الصحيحين، فقد رفضنا الكتاب لقصوره المنهجي لا لمسائله التفصيلية، وذلك لأن استنباط الأحكام يتم بالرجوع لكل ما صح وثبت عن رسول الله ﷺ سواء عند البخاري ومسلم أو عند غيرهما، فهناك حد للحديث الصحيح يُعول عليه، والحديث الحسن على مداره معظم الأحكام، وهناك أحاديث صحت على شرطي البخاري ومسلم ولم يخرجاه في الصحيحين، باعتباره أصح كتاب بعد كتاب الله، ولا تستبعد أن يأتي من يقول: أنا أقتصر على القرآن فقط كطائفة القرآنيين.

ولا نستبعد أيضًا أن يأتي أمثال جمال البنا ليفسر الآيات بهواه، ويكذب بالسُنن حتى وإن كانت في الصحيحين، ولا يلتفت لكتاب تفسير أو فقه أو إجماع، فكيف يؤخذ علم عن أمثال هؤلاء؟ وقد قال العلماء لا يحل للإنسان أن يتكلم في دين الله حتى يتعرف على ما أجمعوا عليه، وما اختلفوا فيه حتى لا يخرق الإجماع المعتبر.

ثامنًا- قد يرى القرضاوي وأمثال جمال البنا في خرقه الإجماع، والقول على الله بغير علم، ومصادمة الكتاب والسُّنَّة، وما كان عليه سلف الأمة بآراء وأهواء ضالة مضلة يسمونها اجتهادات؛ لتحديث وتطوير الخطاب الديني، ولمواكبة تقدم العصر.

وقد يعتبرون ما ذهبوا إليه اكتشافات واختراعات جديرة بالفخر، وينظرون لأمثالنا نظرة احتقار وامتهان وجمود، وسنظل نردد بإذن الله أنه لا يسعنا ولا يسع غيرنا أن نغير ولا أن نبدل في دين الله ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

إن الرجوع للحق فضيلة وجحده رذيلة، والحق ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام، وإذا كان الثبات على ذلك جمود وتخلف فهي تهمة لا ننفيها وشرف لا ندعيه.

إن الخلافة التي بشرنا بها النبي ﷺ ستكون خلافة على منهاج النبوة، وليست خلافة عقلانية ديمقراطية غربية، فاستقيموا يرحمكم الله، وراجعوا أنفسكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله.

ونسأل الله تعالى لنا ولكم ولجميع المسلمين الهداية والسداد والرشاد، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أعمارنا أواخرها، وخير أيامنا يوم نلقاه.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ